دكتور
سعيد إسماعيل على
أستاذ أصول التربية بجامعة عين شمس

نظرات فى التربية الإسلامية

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه هى التجربة الرابعة التى أقوم فيها بتجميع مجموعة من البحوث والدراسات فى التربية الإسلامية فى كتاب واحد ، كانت أولاها بعنوان (دراسات فى التربية الإسلامية) ، عام ١٩٨٢ نشرت فى عالم الكتب ، والثانية بعنوان (بحوث فى التربية الإسلامية) نشرها مركز التنمية البشرية والمعلومات عام ١٩٨٧ ، والثالثة بعنوان (رؤية إسلامية لقضايا تربوية) نشرتها دار الفكر العربى عام ١٩٩٣ ٠

ومن الملاحظ أن الجهد العلمى فى التربية الإسلامية لم يعد على نفس القدر من الازدهار الذى كان عليه منذ أواخر السبعينيات وأواخر الثمانينيات ، مما يعزز تلك المقولة الشهيرة التى تقول بارتباط ذلك بالحقبة النفطية ! والذين روجوا لهذه المقولة يغمزون ويلمزون ، إذ القصد مما قالوا أن المسألة لم تكن مسألة مبدأ وإيمان بقدر ما كانت مسألة " تجارة " ٠ ولا نريد هنا أن نبالغ فى نفى هذا التفسير ، لكن الفرق بيننا وبين أصحاب هذه المقولة ، أننا لا نعمم ، وإنما نذهب إلى أن مقولتهم تصدق بالفعل على نفر من الناس ، وهذا شأن البشر فى كل زمان وفى كل مكان ٠ عندما كانت سوق الاشتراكية رائجة فى مصر ، انقلب كل الكتاب إلى اشتراكيين ، فلما غرب عهدها وأشرقت شمس الرأسمالية من جديد إذا بدماء الاشتراكية تسفح على يد نفر من دراويش الأمس فى الاشتراكية ، الذين يملكون قدرا من " البجاحة " تجعلهم يسرعون بتبرير انقلابهم ، بأن استمرار الحال من المحال وأنه وارد أن يغير الإنسان رأيه ما دامت المتغيرات قد تحولت ، وأصبحوا يرمون الثابتين على المبدأ بأنهم كأهل الكهف ، تيبست عقولهم وأفلسوا وظلوا جامدين على أفكار الأمس معلنين بذلك عن عجزهم عن التطور !

ولعل ما يعزز مقولتنا نحن ، أن الازدهار فى بحوث التربية الإسلامية وانتشارها يرتبط بالصحوة الإسلامية ، والصحوة الإسلامية والحمد لله لم تخب نارها ، وشمسها مستمرة تزداد وهجا على الرغم من كل صور الحصار والضرب وتشويه السمعة ، والاختراق والاستهزاء • وكل ما هنالك أن الحقبة النفطية كانت تتيح فرصة إقامة عدد كبير من المؤتمرات ، والتى كانت بدورها فرصة لكثيرين للكتابة ، فضلا عن المشروعات البحثية ، ومشروعات النشر التى كانت تدعمها مراكز وهيئات وجامعات ، فلما انحسر كل ذلك كان طبيعيا أن ينحسر النشر •

بل إننا لنقول " رب ضارة نافعة " ، ذلك أن هذا الانحسار فى الدعم المادى فرصة رائعة " تغربل " سوق الكتابة والبحث فى التربية الإسلامية ، فيختفى هؤلاء الذين كانوا يكتبون ويبحثون " مسايرة " و " تكسبا " ليبقى من يكتب ويبحث إيمانا وتصديقا ، وعن مبدأ ، وفضلا عن ذلك فإن الموقف الراهن الذى يجف فيه التمويل ، بل وتزداد فيه المضايقات ، وصور الحرب المعلنة والخفية من شأنه أن يزيد رواد الطريق قدرة على الصمود وتحمل الابتلاء ، فتجىء الكتابات أدنى إلى القلب وأقرب إلى العقل ، بحكم ما تكون عليه من المصداقية •

وأرجو ألا يفهم القارىء من حديثى هذا أننى أبعد نفسى عن فريق المتاجرين المسايرين المنتفعين ، وأحشرها فى هذا الفريق " المبتلى " الباقى الصامد ، فالحكم ، فى الأول والآخر للقارىء نفسه وللنقاد ، وإنما هى محاولة لتشخيص الواقع من وجهة نظر المؤلف ، قد تكون صادقة وقد تكون غير ذلك •

وفى النهاية أرجو الله عز وجل أن يسدد على طريق الحق والمعرفة خطانا ، وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ، إنه نعم المولى ونعم النصير

المؤلف

شمس التربية الإسلامية تشرق من الجزيرة العربية *

أولاً - أبعاد التغيير الإسلامي

لقد قام الاسكندر بفتوحاته الخاطفة قبل الميلاد، فهل كانت تلك الفتوحات نار هشيم سرعان ما اشتعلت وسرعان ما انطفأت ؟ وهل اقتبست البلاد المفتوحة عقائد الفاتحين ونظمهم وآدابهم ؟ ألم يكن الأمر على العكس، أن اعتنق الفاتحون أنفسهم ديانة البلاد التي فتحوها؟

ولقد جرب الاستعمار الأوربي الحديث حيله الواسعة وأساليبه الجبارة في بلاد الشرق لكي يغزو عقول أهلها وقلوبهم، كما غزا أرضهم وديارهم فهل ظفر منهم إلا بالقشرة السطحية من صور الحياة؟ ثم إذا هو يجلو عن ديارهم واحدة بعد واحدة؟ (١).

أما رسالة الإسلام، فإنها حين بسطت جناحيها على مجتمع شبه الجزيرة (وعلى غيرها) كانت كأنما أنشأته خلقا آخر .. لقد بدلته في مناطقه المتفرقة وطناً واحداً، ومن قوانينه المختلفة قانوناً واحداً، ومن آلهته المتعددة إلها واحداً .. لقد نفذت إلى جوهر نفسه فحولته تحويلا، وبدلت أسلوب تفكيره تبديلا، بل عمدت إلى لغته، فأضافت لغة القرآن لساناً إلى جانب لسانه، وكثيراً ما أنسته لسانه الأصيل وجعلت الاسلام هو لسانه الوحيد.

إن هذا النجاح ليس مرده في نظرنا إلى سبب واحد من الأسباب، ولا إلى فضيلة من الفضائل .. لقد تضافرت عليه شخصية الداعي ومناهج دعوته وشخصية الأمة التي تلقت تلك الدعوة، وطبيعة الدعوة نفسها، ومن وراء ذلك كله، كلاءة الله ورعايته.

---

* نشرت بالكتاب السنوي في التربية وعلم النفس، تحرير سعيد إسماعيل علي ، القاهرة، دار الفكر العربي، المجلدان الحادي والثاني عشر.

ويمكن أن نتبين أبعاد التغيير الإسلامى فى المظاهر التالية :

١- التوحيد السياسى:

فلعل من أبرز التغيرات التى أحدثها الإسلام وأعادت صياغة الحياة من جديد على أرض الجزيرة العربية، هى أنه جمع كلمة سكانها، فصاروا يداً واحدة مهما كان الاختلاف بينهم فى الأنساب وفى المواطن. وبدلا مما كان حادثاً من مفاخرات القبائل والبطون والأفخاذ، استطاع الإسلام أن يوحد بينهم تحت علم واحد كما يتضح لنا هذا من قوله ﷺ «المسلمون إخوة». وجاء على لسانه أيضاً يوم فتح مكة : «يا معشر قريش. إن اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب» [٢]. أما فى خطبة الوداع ، فقد قال ، «...أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، وأكرمكم عند اللّه أتقاكم، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى» [٣].

وكانت هذه الرابطة هى التى ساعدت على ظهور الأساس الذى قامت عليه الدولة الإسلامية، ونعنى به (الأمة الإسلامية)، فقد بدأ ميلادها فى رمضان من السنة القمرية التى تقابل عام ٦١٠م، عندما نزل الوحى على محمد ﷺ بأولى آيات القرآن الكريم، واتصل نزول الوحى على طول حياة الرسول حتى اكتملت عقائد الإسلام وشريعته وقانونه الخلقى [٤].

وأصبحت يـــثرب بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، معقل الإسلام وملجأ المسلمين [٥]. وغدت تعرف باســم مــدينة النــبى، وتسمى اليوم (المدينة)، والمديـــنة المنورة) لوجود قبر الرسول بها [٦].

ومن هذا المجتمع الدينى فى المدينة، نشأت فيما بعد دولة الإسلام، وبقى الدين أس اجتماعها. وهذه أول محاولة فى تاريخ الجزيرة لتنظيم الجماعة العربية تنظيما غير مألوف من قبل قائماً على أساس دينى لا على أساس الدم كما كان فى الماضى أو مرتبطا باللّه الواحد الفرد ممثل

الوحدة السياسية، وكان الرسول ﷺ على قيد الحياة هو المنفذ لتعاليم الله سبحانه وتعالى والمرجع الأخير فى شئون الأمة المدنية. وعلى هذا كان عليه الصلاة والسلام يمارس السلطة الزمنية نفسها التى يمكن أن يمارسها رئيس، ومن هنا أصبح جميع أفراد الجماعة الإسلامية، بقطع النظر عن نزعاتهم القبلية وولائهم القديم، إخوانا فى العقيدة وأعضاء فى أخوية واحدة، يجمعهم حب الله والاقتداء برسوله (٧).

وقد وضع النبى ﷺ دستورا لتنظيم الحياة العامة فى المدينة أو تحديد العلاقات بينها وبين جيرانها. ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية، وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم. وقد عرف هذا الدستور (بالصحيفة)، ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية، فإنما تقوم الدولة أولا ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور، ولكن النبى ما كاد يستقر فى المدينة ، وما كاد العام الأول من هجرته إليها ينتهى، حتى كتب هذه الصحيفة التى جعل طرفها الأول المهاجرين، والطرف الثانى: الأنصار، وهم الأوس والخزرج جميعا، والطرف الثالث، اليهود من أهل يثرب (٨).

وكانت مهمة النبى ﷺ السياسية بعد هذا تنحصر فى الدفاع عن حدود دولته وضمان الأمن لها، والأساس الذى نفسر به كل التصرفات السياسية، هو أن المدينة ومن انضم إليها، دولة واحدة غير متصلة بما عداها إلا بالشروط الجديدة التى وضعها النبى. ونستطيع أن نقول، أن حكومة المدينة ظلت قاصرة على المدينة نفسها وعلى ريفها إلى عام فتح مكة ٨هـ، فالطور الأول فى شكل الحكومة المدينية هو طور المدينة – الدولة City - state، وقد دام ثمانى سنوات. وكما حرص النبى ﷺ على أن يوجد داخل المدينة أداة للحكم وأن ينظم شئونها الداخلية، كذلك حرص عن طريق السرايا على أن ينضم إلى المدينة ما حولها من ريف وما حوله من قبائل(٩).

وبعد غزوة تبوك، أخذت بوادر الوحدة تظهر حيث أخذت القبائل

العربية تفد إليه معلنة إسلامها عن طوع واختيار، يقول ابن هشام فى ذلك: «ولما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف، وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه» (١٠)

وقد تمتعت المدن والقبائل بعد أن تحولت إلى الإسلام بقسط وافر من الاستقلال الذاتى داخل نطاق الدولة العربية الإسلامية ليعلموا الناس القرآن ويفقهوهم فى الدين ويجبون منهم الصدقات، ثم يوزعونها بين الفقراء من أهل تلك البلاد أو يرسلونها إلى المدينة، وترك الرسول للأمراء الذين أسلموا ما كان لهم من سلطان فى بلادهم قبل إسلامهم (١١).

وبعد وفاة الرسول وتولى أبى بكر مقاليد الحكم حدث حادث ضخم، وهو الردة، وكان نجاح الخليفة الأول فى التغلب على المرتدين تصفية وامتحاناً وصقلا وتثبيتا للإسلام ومدا لأطرافه حتى يدرك كل شواطئ البحر الذى يطوق الجزيرة من أطرافها. وكانت هذه الحروب (تصفية) لأنها خلصت الدولة الناشئة فى المدينة من كل الشكوك التى أثارها موت الرسول ﷺ والخوف من أن يكون فى موت البانى، تصدع البنيان. وكانت (امتحانا) لهؤلاء النفر من الصحابة والمؤمنين ليستبين مكان العقيدة من نفوسهم. وكانت (صقلا) لكل مقومات الجماعة الإسلامية فى نظمها وفكرتها ووحدتها، فوضعت النظم موضع التطبيق، ووضعت الوحدة موضع الغرض الأسمى فى الحياة الجديدة. وكانت أخيرا تثبيتا للإسلام ومدا له (١٢).

ومهما كان الرأى فى فتنة عثمان. فهى من بعض وجوهها مظهر لاحتجاج بعض أفراد الجماعة على الطريقة التى كانت الأمور تساس بها . وسواء وافق الإنسان الثائرين على اعتراضاتهم أو أنكر الطريقة التى تصرفوا بها حيال السلطة الحاكمة، فإنه لا بد أن يسلم بأنهم كانوا يؤمنون بأن من حقهم أن يسألوا عما لا يفهمونه من تصرفات إدارة الخليفة وأعمال رجاله. حقا لقد تحول الأمر فيما بعد إلى كارثة الحرب الأهلية فى عهد الخليفة الرابع على بن أبى طالب، ولكن الطريق الذى سارت فيه الأحداث شئ، ومبدأ محاسبة السلطة الحاكمة على تصرفاتها شئ آخر. وهذا المبدأ

فى ذاته لا بد منه لكل مجتمع حر (١٣).

٢- البناء العقيدى :

فلقد جاء الإسلام بعقائد أساسية كعقيدة التوحيد، وهى «لا إله إلا اللّه» فكانت الدعوة إلى التوحيد ثورة على عقيدة الأغلبية من سكان الجزيرة العربية الوثنية، وحتى الأديان السماوية - المعروفة وقتئذ، كان قد اندس فيها نوع من الوثنية، فإله اليهود ، أصبح إلههم وحدهم ، وإنهم - بحسب ما يروى لنا القرآن - كانوا يعبدون (عزيراً)- أحد رجال زمنهم - على أنه ابن اللّه، كما كانو يتبعون ما جاء فى التوراة بحيث ضرب القرآن المثل بهم بقوله «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً» (١٤). ثم إن النصرانية العربية لم تعد نصرانية صحيحة، فالقبائل النصرانية فى الجزيزة كانت لها نفس طباع العرب فى الثأر، ومنهم من كان يحلف باللات والعزى من أصنام العرب (١٥). ومن ناحية أخرى أضحت عقيدة المسيحية غامضة بعد ما غلبت عليها الفلسفة اليونانية (١٦)، وكل فرقة فيها تختلف عن الأخرى فى جوهر العقيدة نفسها. ولا بد أن الجدل زعزع أسس هذه العقيدة، لذلك كانت دعوة الإسلام بالسمو إلى إله واحد، دعوة إلى الإيمان بالعقل (١٧).

والعقيدة فى الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها. فمن عرف عقيدة قوم فى إلههم، فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان، ومن ثم صحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات، فلا يهبط دين وعقيدته فى الإله عالية، ولا يعلو دين وعقيدته فى الإله هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذى تتبعه جميع الموجودات (١٨) .

ولا شك أن هذه الصورة قد رفعت المستوى العقلى لعرب الجزيرة إلى درجة كبرى، فهذه الصفات التى وصف الإسلام بها اللّه، نقلتهم من عبادة أصنام وأوثان، وما يقتضيه ذلك من انحطاط فى النظر وإسفاف فى الفكر،

إلى عبادة إله وراء المادة ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾. كان الإله عند أكثرهم إله قبيلة، وإن اتسع سلطانه، فإله قبائل، أو إله العرب، فأبانه الإسلام إله العالمين ومدبر الكون وبيده كل شئ، وعالماً بكل شئ، فاستطاع العربى بهذه التعاليم أن يرقى إلى فهم إله لا مادة له، واسع السلطان، واسع العلم. وأفهم الإسلام أن دينهم خير الأديان، وأن العالم حولهم فى ضلال، وأن نبيهم هادى الناس جميعاً، وأنهم ورثته فى هداية الأمم، فكان ذلك من البواعث على غزو هذه الأمم يدعونهم إلى دينهم ويبشرونهم به (١٩).

ولم يقف الامر عند حد الإيمان بالله ووحدانيته، وإنما تضمن البناء العقيدى الجديد جوانب وأركان أخرى كان لها أثرها في تشكيل الإنسان على هذه الأرض، و هذا ما يمكن أن نبينه فيما يلى (٢٠).

- المعرفة بالملائكة، إذ تدعو إلى التشبه بهم والتعاون معهم على الحق والخير كما تدعو إلى الوعى الكامل واليقظة التامة، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن، ولا ينصرف إلا لغاية كريمة.

- والمعرفة بالكتب الإلهية، انما هى عرفان بالمنهج الرشيد الذى رسمه الله للإنسان كى يصل بالسير عليه إلى كماله المادى والأدبى.

- والمعرفة بالرسل، إنما قصد بها ترسم خطاهم والتخلق بأخلاقهم، والتأسى بهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة والحياة النظيفة التى أرادها الله للناس.

- والمعرفة باليوم الآخر، هى أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر.

- المعرفة بالقدر، تزود المرء بقوى وطاقات تتحدى كل العقبات والصعاب، وتصغر دونها الأحداث الجسام.

وهكذا يبدو بجلاء أن عقيدة بهذه الصورة، يكون لها أثرها فى تهذيب السلوك وتزكية النفوس وتوجهها نحو المثل الأعلى، وتهذيب سلوك الأفراد عن طريق غرس العقيدة الدينية هو أسلوب من أعظم الأساليب التربوية حيث أن للدين سلطاناً على القلوب والنفوس وتأثيراً على المشاعر والأحاسيس،

ولا يكاد يدانيه فى سلطانه وتأثيره شئ آخر.

وإذا كان مجتمع الجزيرة قد وجد فى هذا البنيان العقيدى. ماهو كفيل بأن يغير «عقله»، فقد وجد أيضاً فى الإسلام «تدريبات عملية» «وتمرينات سلوكية» حتى لا ينحصر البنيان العقيدى داخل السطور وينحبس على صفحات الكتب، وإنما يجد الطريق مفتوحاً إلى «التطبيق» و «التنفيذ» و «التشخيص»، فكانت (العبادات).

والعبادات كانت لتربية الضمير لدى المواطن ليأتلف مع غيره ، ويرتبط به ارتباطاً روحياً. وقد روى أن النبى ﷺ قال : «المؤمن يألف، فلا خير فيمن لا يألف ويؤلف»، فما كانت العبادات لحاجة الله تعالى إليها ولا لمجرد التقرب إليه سبحانه حتى يكون ذلك التقرب ولو بظاهر من القول غرضاً مقصوداً، إنما كانت العبادات لتربية الضمير الدينى اللوام عند مقارفة معصية أو مقاربتها (٢١)، وللإحساس بالاطمئنان إذا كان متذكرا الله سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٢).

ولم تكن غايتها مجرد التقوى السلبية، بل اتجهت إلى النفع الإنسانى فى العالم سعيا وراء إيجاد مجتمع متحاب غير متباغض ولا متنازع، إذا كانت هذه العبادات لم تؤد إلى هذه الغنية العالية لدى البعض فى بعض الفترات، فإنها لم تكن عبادة محسوبة لأصحابها مرضية من الله، بل تكون محسوبة عليهم (٢٣).

٣- التنظيم الاقتصادى :

وليس من ريب فى أن الحياة فى شبه الجزيرة فى أصلها وكمالها، وسعادتها وعزها، من علم وصحة وقوة، واتساع عمران وسلطان، لم يكن سبيل إليه إلا بالمال، وقد نظر القرآن الكريم إلى الأموال هذه النظرة الواقعية، فوصفها بأنها زينة الحياة، وسوى فى ذلك بينها وبين الأبناء ووصفها بأنها قوام للناس وقوام الشئ ما به يحفظ ويستقيم وهى - كما

ترى - قوام المعاش والمصالح الخاصة والعامة.

ولما كان الإسلام دينا عمليا، ينظم بأحكامه - على أساس من الواقع - مقتضيات الحياة ويزاوج فى الوقت نفسه بين مطالب الروح والجسم بميزان العدل والاستقامة، وقد رسم للروح طريق سعادتها، كان من الضرورى أن يرسم أيضا للمادة طريق سعادتها، ويأمر بتحصيل ما فيه خيرها ونفعها. ومن هنا أمر بتحصيل الأموال من طرق فيها الخير للناس، فيها النشاط العملى، فيها عمارة الكون، والتقلب فى الأرض، فيها الاختلاط والتعارف والتعاون والمبادلة (٢٤).

ومن هنا فقد سار المواطن المسلم الذى تشرب العقيدة الإسلامية على حقيقتها صافية نقية فى هذه الفترة على أرض الجزيرة فى المجال الاقتصادى على هدى مبادئ ثلاثة (٢٥):

المبدأ الأول : أن هذه الحياة الدنيا هى دار العمل، وهى مزرعة الآخرة، فلا يتصور أن يمضى الإنسان فيها عمره سدى أو أن يقاطعها ويخاصمها بدعوى أنه يؤثر الآخرة ويعد نفسه لها، فهذا النوع من الزهد غريب كل الغرابة على روح الإسلام ومخالف للثابت من نصوصه، والاستعداد للآخرة لا يتم على أرض غير هذه الأرض، ولا يقع فى زمان يجاوز عمر الإنسان.

المبدأ الثانى : أن الله قد أحل الطيبات لعباده المؤمنين ولم يضطرهم إلى شئ من التأثم وتعذيب الضمير إذا هم أخذوا من هذه الطيبات بنصيب لم يسرفوا فيه ولم يقتروا « ﴿وكَانَ بَيْنَ ذَلكَ قواماً﴾ (٢٦)، ﴿قُلْ منْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّه الَّتي أَخْرَجَ لعبَاده وَالطَّيِّبَات منَ الرِّزْق﴾(٢٧).

المبدأ الثالث : إن رسالة المسلم فى الحياة، رسالة مزدوجة، فهى فى جزء منها تعمير للكون ... وفى جزء آخر ترشيد لحركته وهداية لها حتى تستقيم على أمر الله. ويقول تعالى :﴿هو أَنشأَكُم مّن الأَرْض واسْتعْمركُمْ فيها﴾ (٢٨)، ثم يدعو إلى تعميرها وإثرائها والحفاظ على خيرها، ويحذر من

إفسادها وتدميرها. ويقول ﷺ : «من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، كان له فى كل شئ نصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل» [٢٩].

وقامت «الملكية» على أرض الجزيرة على الأسس الإسلامية، ومن تحليلنا لهذه الأسس نخرج بالنتائج التالية. [٣٠]

١- أن هذا التحليل يرينا للملكية أنواعا ثلاثة، فهناك ملكية بقيت على أصلها ملكا لله لم تمسها يد بشر لا الفرد ولا الجماعة، مما خلقه الله ولم يحرزه البشر، ولم ينتفعوا به سواء أكان فى الأرض التى نسكنها أو فيما فوقها.

٢- وهناك ملكية استحوذ عليها المجتمع كله كالبحار الكبرى، أو جماعات منه مما لا يزال عاما مشتركا مشاعا بينهم، أو جماعات معينة كأهل قرية لهم مراع، أو أرض مشتركة لم يحرثوها ولم يزرعوها.

فهذا النوع من الملكية تعلق به حق المجتمع كله أو بعض جماعاته مع استمرار حق الله فيه الذى هو المالك الحقيقى لما فى الكون.

٣- وهنالك أخيراً ملكية أحرزها إنسان بعينه بسبب مشروع اكتسب به على الشئ المملوك حقاً خاصاً به لا ينازعه فيه غيره، يتصرف به وينتفع بمنافعه وثمراته مع بقاء الأصلين السابقين اللذين هما حق الله الأصلى فى الملك، وحق الجماعة التى بقى لها بعد إحراز الفرد الملكية نوع خاص من الحق تظهر آثاره فى أحكام الملكية الفردية نفسها وما تقيد به من قيود وتتحمله من واجبات دون أن يعنى ذلك نفياً للملكية الفردية ولا إنكاراً لها [٣١].

٤- إن حق الفرد فى التملك منبثق عن تخصيص الله له بهذه الملكية بسبب مشروع وليس هو موظفاً على ملكيته من قبل الجماعة أو المجتمع، وليست الجماعة هى المالك الحقيقى لأن الفرد أحرزها

بحكم من الله وبتخصيص من التشريع الإلهى نفسه، ولكن الله الذى ملكه، أمره أن يراعى حق عباده، أى المجتمع وأن يتحمل بنسبة قدرته بعض تكاليف الجماعة وحاجاتها سواء أكانت هذه الجماعة أقاربه وأسرته أم كانت أهل بلده أم المجتمع الكبير الذى ينتمى إليه.

وإذا كان المال قد تدفق فى عهد الفتوح الإسلامية التى بدأت فى عهد أبى بكر ثم استمرت فى خلافة عمر وعثمان، بل سال سيله الذى لا ينقطع على المدينة ومكة، فهنا نشأت الظاهرة الاجتماعية المعروفة وهى انقسام المجتمع إلى طبقتين : طبقة الفقراء، وطبقة الأغنياء، بل أصحاب الملايين. ويظهر أن الفقر الذى كانت تعانيه بعض الطبقات فى هذه الحقبة كان شديداً قاسياً أثار القلوب الرحيمة ودفع عدداً من طبقات المفكرين إلى البحث عن حل له. والنقطة الأساسية فى الموقف، هى مدى حق الفقراء فى أموال الأغنياء، فقد كان أبو ذر الغفارى، وعدد آخـر من كبار الصحابة منهم على بن أبى طالب نفسه وعبدالله بن عمر يعتقدون أن الزكاة ليست كل الواجب، ولكنهم اختلفوا فى تحديد المقدار الذى يجب بعد أداء الزكاة(٣٢).

٤- التنشئة الاجتماعية الفاضلة:

ولقد أجهد الفلاسفة ودعاة الإصلاح أنفسهم قديماً وحديثاً فى تصور المدينة الفاضلة أو المجتمع الفاضل ولم يتجاوز أمرهم نطاق حلم لذيذ فى نومة مسترخية، ولعل السبب فى ذلك، أن البناء الاجتماعى الذى تصوروه، كان يعوزه من المقومات الأصلية ما يمنحه التماسك ويعطيه صلابة المناعة وصمود المقاومة، كما كان ينقصه الملاءمة بين التصور والواقع.

وللمجتمع الفاضل مظاهر لا ينبغى أن تكون موضع خلاف، وأبرز هذه المظاهر شيوع الأمن وقيام العدالة، وسيطرة نوازع الخير، والاستجابة لمعطيات التطور، وهذه المظاهر تلتقى على نقاء العلاقات الإنسانية

وصفاتها فى تفاعلها مع الحياة والأحياء.

وكل ذلك قد بدأ متجسدا فى المجتمع الذى أقامه الإسلام على أرض الجزيرة فى سنواته الأولى حيث شاع الأمن، وقامت العدالة وسيطرت نوازع الخير (٣٣) ،وهذا ما نستطيع تبينه من خلال الملامح الآتية :

- فقد حذرت الشريعة الإسلامية من ارتكاب المحرمات على وجه العموم منذرة بعقوبة الآخرة على صورة تثير فى نفوس المؤمنين شدة الخوف من الإقدام على شئ منها وتدفع فى الوقت نفسه عن المجتمع كثيرا من شرورها، ثم وضعت لبعض الجنايات عقوبات دنيوية إلى جانب العقوبات الأخروية حتى يتآزر فى دفعها وزجر الناس عنها، رادع الدين ورادع السلطان.

فما كان من الجنايات خفيفاً لا يمكن ضبطه بمظاهر محددة كالغيبة والنميمة والحسد، والحقد، والكذب، وغير ذلك مما يتصل بالجانب الخلقى أكثر من اتصاله بالجانب العملى أو كان متصلا كثيرا بالجانب العملى،ولكن لم يأخذ الصورة القصوى من صور الإجرام كأخذ المال غصباً، اقتصرت فيه على التحذير بالعقوبة الأخروية، التى ترجع إلى العليم بما تنطوى عليه الجوانح وما تخفيه الصدور، وما كان منها متصلا بالحياة العامة وله آثاره السيئة فى حقوق الأفراد والجماعات، وله من عناوين الإغراق فى الشر أقصاها، جعلت له عقوبات دنيوية على الحاكم تطبيقها وتنفيذها. (٣٤)

- وإذا كان الإسلام قد قرر أن الناس درجات، إلا أنه وضع الكثير من الضوابط التى حالت بين المجتمع الإسلامى وبين وقوع أبنائه فى براثن سوء الاستغلال والطبقية بصورتها القبيحة. ذلك أن تفضيل بعض الناس على بعض فى الدنيا حسب حظوظهم من الحياة وتفاوتهم فيها على قدر تفاوتهم فى قدراته وعملهم، أمر ظاهر ملموس لا مناص منه لا فى الإنسان فحسب ولكن فى كل ما خلقه الله في هذا الكون. ومن هنا نجد أن أكثر ما عنى بالدرجة والدرجات فى آيات القرآن الكريم، إنما هو الحديث عن المكانة

والمنزلة التى جعلها الله لعباده فى الآخرة فى الجنة أو فى النار حسب مقاماتهم التى تهيئها لهم فى أعمالهم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٣٥) والنعيم فى الآخرة متفاوت وعلى درجات، كما أن العذاب كذلك. وهذه المقامات والدرجات وإن كانت خاصة بالآخرة، إلا أنها توحى للمؤمنين العقلاء أن يلتزموا بالميزان الذى يزن الله به هؤلاء، وهو الأعمال المرتكزة على العقيدة السليمة لا المال . (٣٦)

– إذا كان الفرد هو اللبنة الحية فى بناء المجتمع الإسلامى، كان من البديهى أن يهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بالمحضن الطبيعى الذى يقوم على رعايته، وليس هناك أجدر ولا أحق من الأسرة مكاناً لهذه الرعاية، ومن ثم فقد اهتم بتكوينها بالأمور الآتية : (٣٧)

١– حرم الزواج بالأقربين سموا بهذه القرابة ورغبة فى امتداد الأسرة وسعتها ووقاية لهذه الدائرة القريبة من شواجر الخصومة والبغضاء.

٢– قرر حق الرضاعة والحضانة اهتماماً بالطفولة وحفاظا على الرابطة الأسرية كى تمتد وتزدهر فلا تنقطع ولا تتوقف.

٣– قرر حق النفقات للأصول على الفروع، والفروع على الأصول على تفصيل مذكور فى كتب الفقه.

٤– وقرر التوارث بنظام فريد يحفظ لكل ذى قرابة حقه.

٥– وقرر حق العتق لمن ملكه قريبه.

٦– وقرر وجوب صلة الأرحام بالبر والتعهد والزيارة.

– ألغى الإسلام الرق الناشئ عن القرصنة و الاختطاف، والرق الناشئ عن تجريد الإنسان من حريته الشخصية بسبب استغراق ذمته بدين ونحو ذلك والرق الجماعى الناشئ عن السيطرة والاستيلاء على البلاد العدوة، أما الصور المتبقية، فقد وضع أسس إبطالها فى المستقبل.

هذه هى مجرد لمحات من التغيرات الجذرية التى أحدثها الإسلام

على أرض شبه الجزيرة وفى غيرها بطبيعة الحال، مثلت «مسرح» العمليات التربوية .. وبتعبير أدق مثلت (الإطار الأيديولوجى) للعمل التربوى. وقد قلنا (لمحات) لأنها قطرات من بحر كبير يقتضى استيفاءه كتباً عدة.

ثانياً - الأسس التربوية كما حددها الإسلام

وإذا كانت شبه الجزيرة قد شهدت فجر الإسلام بكل ما يمثله وجوده من معانى التغيير والتجديد والتطوير لحياة الانسان إلى الدرجة التى جعلتنا نذهب إلى القول بأنه قد خلقه من جديد - والخلق هنا مجاله السلوك والتفكير والقيم والعادات الاتجاهات وكل مكونات الشخصية- فإن من المنطقى أن يحرص الإسلام على أن يضع صورة كاملة متكاملة للطريقة التى أعاد بها صياغة هذا الإنسان، وبمعنى آخر، كان من الطبيعى أن تحتل التربية مكانة ممتازة فى الإسلام حيث أنها - كما نعلم - عملية عن طريقها تحول الأفكار والمعتقدات إلى سلوك وعادات واتجاهات وقيم تحدد للانسان الطريق إلى الأهداف المطلوبة :

ومن ثم فقد كان لزاما علينا أن نحاول التعرف على بعض هذه الطرق، وكذلك بحث ما قامت عليه من أسس ومفاهيم كى يتم لنا التعرف على مرحلة خصبة وخطيرة من مراحل تطور التربية والتعليم فى هذا البلد. وإنه لمما يدعو إلى الفخر والتقدير حقا، أن تكون تلك المرحلة هى المهد الأول للتربية فى كل العالم الإسلامى فى مختلف العصور وإن دخلت عليها بعد ذلك عوامل التبديل والمؤثرات الأجنبية وأسباب الجمود والتخلف التى عرفها ذلك العالم فى عصور تالية.

١- المفهوم الشامل "للعلم" و "التعليم"

فلقد حدد القرآن الكريم للعلم معنى شاملاً لا يجعله يقتصر - كما ظن البعض خطأ - على العلم الدينى، وإنما :

(أ) جملة المعارف التى يدركها الانسان بالنظر فى ملكوت السموات

والأرض، وما خلق من شئ، ويشمل الخلق هنا، كل موجود فى هذا الكون ذى حياة أو غير ذى حياة. (٣٨) وهذا المعنى يفهم من هذه الآيات العديدة التى تحض الإنسان على البحث والدراسة لما فى الكون من مظاهر مختلفة، منها على سبيل المثال :

﴿ أفلم يروا إلىٰ ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ (٣٩).﴿ وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾. (٤٠) ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق ﴾ (٤١). ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (٤٢).

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٤٣)

وعلى ذلك فالعلم الذى وجد العربى نفسه مطالباً بالسعى وراءه، يشمل كل ما يوسع المدارك ويبصره بأمور الحياة، ويفيده توفيقا وقدرة على الاستفادة بكل ما خلق الله لإسعاد البشرية، فإدراك طبيعة الأرض وما يحيى مواتها ويجعلها تنبت وتثمر، علم مطلوب دراسته وتعلمه. وما يصلح الحيوان ويسخره لخدمة الإنسان واكتمال الانتفاع به، علم يدعو القرآن إلى تعرفه، وطرق الكسب المشروعة لتحصيل المال واستثماره على الوجه الذى ينظم موارده ومصادره ويمنع التحكم والاحتكار ويزيل الحقد والغل من النفوس، علم يجب التعرف عليه والتسلح به، والتعرف على الصناعات بأنواعها التى تيسر للإنسان سبل الحياة وتمكنه من الانتفاع بالقوى الكامنة فيما خلق الله علم مطلوب منه الوقوف عليه، وما يحفظ به الأنفس من الهلكة بمقاومة الأمراض والعلل وطرق علاجها والوقاية منها، علم وجب التزود به،

وكل ما يمكن إعداده من قوى يدفع بها الأذى والعدوان ويرهب به من تحدثه نفسه العبث بالأمن والسلام، علم وجب التعرف عليه. (٤٤)

(ب) «التبصر فى أى أمر من الأمور، والإتيان به على الوجه الأكمل» (٤٥) أو بمعنى آخر هو طريقة تفكير ومنهج وبحث، وهذا يفهم من قوله تعالى :«هل يستوى اللذين يعلمون والذين لا يعلمون»؟ وهو استفهام استنكارى، معناه أنه لا يستوى عالم وجاهل. وقد قال تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أى أن الظلمة لا تساوى النور، فبين الله لنا أن الظلمة مثال لحال من لا يعلم وأن النور مثال لحال من يعلم، نتبين من ذلك أن عدم العلم يشبه الظلام، ونحن نعلم ما يكون من الإنسان إذا اشتد به الظلام وهو سائر فى طريق يقصد غاية معلومة، فان الظلام يعمى عليه الطريق وربما سلك طريقا يبعده عن مقصده، وقد يصادف هوة فيسقط فيها فيهلك قبل الوصول إلى مقصده (٤٦).

ولذلك كانت عملية (التعليم) شاملة بنفس المعنى أيضاً (٤٧)، فسبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٨)، فإن هذا يعنى أن الرسول ﷺ يعلم المسلمين تلاوة القرآن، وهذه التلاوة لها مقوماتها وأركانها التى تجعل من يتلو القرآن يكون قد تلاه (حق تلاوته). وهى الفهم والوعى والتدبر، فهى بهذه الصورة تؤتى أكلها، ويجنى القارئ ثمارها، هذه الثمار التى تتبدى فى تطهير النفس البشرية من أدران الرذيلة وسوء الخلق مما يجعلها فى حالة تسمح له بتلقى الحكمة وتعلم كل ما ينفعها ومالم تكن تعلمه.

ويجب أن ننبه هنا إلى أن المقصود بالحكمة هنا هو النتيجة النهائية التى يصل إليها الإنسان بعد تحصيل قدر كاف من المعرفة والتمرس بطرق التفكير السليم مطعما هذا وذاك بتجارب الأيام وخبرة الحياة، ومن هنا كان الحاصل عليها مستحقا الثناء ومعتبرا من الحاصلين على

الخـــــير الكثير ولا يدرك ذلك ويعيه حق الوعى إلا من أعمل عقله بذكاء كما يقول تعالى: ﴿يؤْتِي الْحِكْمَةَ من يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (٤٩).

٢- التعلم حق .... وواجب :

وإذا كان العلم فى الإسلام يتسع ليشمل المعرفة بجميع مجالاتها مما فيه النفع والتعمير للكون والمجتمع، وإذا كان «التعليم» أيضا لا بد أن يكون عملية شمولية متكاملة، كان التعلم واجباً على كل مسلم، وكان حقا له على المسئولين توفير فرصه وسبل الحصول عليه، وهذا ما نتبينه من عديد من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم، فتارة نجد ما يفيد التعلم كواجب، وتارة نجد ما يفيد التعلم كحق، وتارة ثالثة نجد الأمرين معا فى ترابط وعروة وثقى.

فما يفيد التعلم كواجب، ذلك الأمر الربانى الذى تدل عليه الآية الكريمة : ﴿اقرأ باسم ربِّك الَّذى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَنَ مِنْ علَقٍ ، آقرأ وَربُّكَ الأكرمَ ، الَّذى علَّمَ بالْقلمْ ، عَلَّمَ الإِنّسنَ مَالَم يعلَّم﴾ (٥٠). ومغزى أن تكون القراءة باسم اللّه ، هو تطهيرها مما قد يشوبها من أغراض شخصية بحتة وأهداف تخريبية وشطحات عنصرية.

واللّه سبحانه وتعالى إذ يجعل من أصحاب العلم فئة تستحق التقدير والامتياز كما فى قوله : ﴿يرْفَعِ اللَّهُ الَّذين آمَنُوا منكُمْ وَالَّذين أُوتُوا الْعِلْمَ درجَاتٍ﴾ (٥١)، أو يقرنهم باسمه الكريم وبالملائكة فى شهادة التوحيد كما فى قوله :﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥٢)، إنما يعنى إيجاب سعى المسلم للحصول على هذا الشرف وذاك التقدير. وقد أكد القرآن طلب الإقبال على العلم ومواصلة تحصيله وجعله الوسيلة التى يصل بها المرء إلى معرفة الخالق والإيمان به، وعاملا من عوامل خشيته فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٥٣).